عقيـــدة القضـــاء والقـــدر
عنـــد
أهـــل الســـنة والجـــماعـــة

إعداد
الشيخ /محمد حمدي رضوان
إمام وخطيب

بسم الله الرحمن الرحيم

مبحث في القضاء والقدر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وبعد ....

لما كان الإيمان بالقضاء والقدر أصل من أصول الدين وركن من أركانه ، أردت أن أوضح ما التبس منه على كثير من الناس، وذلك من خلال كلام رب العالمين ، وأحاديث سيد المرسلين، وسوف أعلق عليهما تعليقا بسيطا يكشف الغامض ، ويجلي المبهم دون توسع يخل بالمقصود، فقد أردته بحثا في غاية الاختصار، وسنستأنس أيضا بكلام العلامة ابن القيم وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهم من علماء السنة والله المستعان والهادي إلى الصواب

تقـديـم

قبل البدء أصدر المبحث بهذه الكلمات التي ذكرها الإمام النووي وغيره حتى نكون علي بينة من أمرنا وحتى يقف العقل عند حدوده فلا يشرد إلى مهاو الردى أو يزيغ (قال رحمه الله : قال الإمام أبو المظفر لسمعاني رضي الله عنه وسبيل معرفة "القضاء والقدر" التوفيق من الكتاب والسنة دون محض القياس ومجرد العقول فمن عدل عن التوفيق فيه ضل وتاه في بحار الحيرة ولم يبلغ شفاء النفس ولا يصل إلى ما يطمئن به القلب لأن القدر سر من أسرار الله تعالى ضربت دونه الأستار واختص الله تعالى به وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم لما علمه من الحكمة ، وواجبنا أن نقف حيث حد لنا ولا نتجاوزه وقد طوى الله تعالى علم القدر عن العالم فلم يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب وقيل إن سر القدر ينكشف لهم إذا دخلوا الجنة ولا ينكشف قبل دخولها)

ويقول الطحاوي رحمه الله تعالى: " وأصل القدر سرّ الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والتعمق في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة، فإن الله طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى: (لا يُسْأل عما يفعل وهم يسألون) ". وقال الآجُرِّيُّ: " لا يحسن بالمسلمين التنقير والبحث في القدر، لأن القدر سر من أسرار الله عز وجل، بل الإيمان بما جرت به المقادير من خير أو شر وواجب على العباد أن يؤمنوا به، ثم لا يأمن العبد أن يبحث عن القدر فيكذب بمقادير الله الجارية على العباد، فيضل عن طريق الحق ".

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: " من السنة اللازمة: الإيمان بالقدر خيره وشره، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لِمَ؟ ولا كيف؟ إنما هو التصديق بها والإيمان بها ومن لم يعرف تفسير الحديث، ولم يبلغه عقله، فقد كفى ذلك، وأحكم له، فعليه الإيمان به، والتسليم له، مثل حديث الصادق المصدوق، وما كان مثله في القدر "

ويجب أن نعرف أن حواس الإنسان لها حد تنتهي إليه وتقف عنده لا تتعداه بما في ذلك العقل الإنساني وصدق القائل: "والعقل ليس بمدرك شيئا إذا ما الله لم يكتب له الإدراك" واستيعاب العقل الإنساني لعقيدة القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة سهل ميسور، ليس فيه صعوبة، ولا غموض وتعقيد ، أما البحث في سر القدر

والغوص في أعماقه باللجوء إلى محض العقل دون الاستناد إلى صحيح النقل فإن ذلك يبدد الطاقة العقلية ويهدرها ولا يوصلها إلى شيء

أولا ما هو القضاء وما هو القدر ؟

نعرف القدر بأنه حكم الله كما قال الكرماني. وقال الحافظ ابن حجر: "وقالوا - أي العلماء -: القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل، والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله وفي لوامع الأنوار قال محمد بن أحمد السفاريني " القضاء والقدر أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس، وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء، وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما، فقد رام هدم البناء ونقضه. وذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري في أول تفسير سورة الإسراء أن إسماعيل بن أحمد النيسابوري قد استوعب الأوجه في القضاء في كتابه (الوجوه والنظائر) فقال: لفظة " قضى " في الكتاب العزيز جاءت على خمسة عشر وجها ولا يتسع المجال لذكرها .

ثانيا الإيمان بالقدر والرد على القدرية والجبرية

قال الله تعالى: {إنا كل شيء خلقناه بقدر} عن أبي هريرة قال جاء مشركو قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاصمون في القدر فنزلت هذه الآية: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} رواه مسلم

قال ابن القيم رحمه الله بعدما ذكر هذه الآية " والمخاصمون في القدر نوعان أحدهما: من يبطل أمر الله ونهيه بقضائه وقدره كالذين قالوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا والثاني: من ينكر قضاءه وقدره السابق والطائفتان خصماء الله قال عوف: من كذب بالقدر فقد كذب بالإسلام إن الله تبارك وتعالى قدر أقدارا وخلق الخلق بقدر وقسم الآجال بقدر وقسم الأرزاق بقدر وقسم البلاء بقدر وقسم العافية بقدر وأمر ونهى وقال الإمام أحمد القدر قدرة الله واستحسن ابن عقيل هذا الكلام جدا وقال هذا يدل على دقة علم أحمد وتبحره في معرفة أصول الدين وهو كما قال أبو الوفاء: فإن إنكار القدر إنكار لقدرة الرب على خلق أعمال العباد وكتابها وتقديرها وسلف القدرية كانوا ينكرون علمه بها وهم الذين اتفق سلف الأمة على تكفيرهم

وهنا نقول أن المخالفين للحق في القضاء والقدر طائفتان:

الطائفة الأولى: الجبرية، يقولون: العبد مجبور على فعله وليس له اختيار في ذلك وهم الذين قال عنهم ابن القيم هم من أبطلوا أمر الله ونهيه . ونرد عليهم بأمرين :

١- أن الله أضاف عمل الإنسان إليه وجعله كسباً له يعاقب ويثاب بحسبه ولو كان مجبوراً عليه ما صح نسبته إليه ولكان عقابه عليه ظلماً ولنتفت الأوامر والنواهي ولأبطلت نصوص القرآن والسنة

٢- أن كل واحد يعرف الفرق بين الفعل الاختياري والاضطراري في الحقيقة والحكم، فلو اعتدى شخص على آخر وادعى أنه مجبور على ذلك بقضاء الله وقدره لَعُدَّ ذلك سَفَهاً مخالفاً للمعلوم بالضرورة ، ولا يدعي شخص أنه لا يستسيغ شرب الشاي مثلا ثم يشربه رغما عنه ويقول أنه مجبر عليه من قبل خالقه، فهذا باطل بالمشاهدة

الطائفة الثانية: القدرية، يقولون: العبد مستقل بعمله وليس لله فيه إرادة ولا قدرة ولا خلق ، وهؤلاء القدرية قد تبرأ منهم عبد الله بن عمر ففي صحيح مسلم عن يحيى بن يعمر، قال: كان أول من قال بالقدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن فلقينا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فقلنا: إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن، ويتبعون العلم، ويزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف (أي مستأنف لم يسبق به قدر ولا علم من الله تعالى وإنما يعلمه بعد وقوعه)، قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني منهم بريء، وهم مني برآء، والذي يحلف به ابن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا، فأنفقه، ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر.

ونرد علي القدرية بأمرين:

١- أنه مخالف لقول الله تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}[الزمر: ٦٢] ، وقوله تعالى {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: ٩٦] .

٢- أن الله مالك السموات والأرض فكيف يكون في ملكه ما لا تتعلق به إرادته وخلقه؟!

وكلا المذهبين باطل؛ لأدلة كثيرة أخرى ؛ منها قوله تعالى: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}؛ لأن قوله تعالى: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} :يرد على الجبرية؛ لأن الله أثبت للعباد مشيئة، وهم يقولون: إنهم مجبورون لا مشيئة لهم.

وقوله تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلاّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} فيه الرد على القدرية القائل بأن مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله، وهذا قول باطل؛ لأن الله علق مشيئة العبد على مشيئته - سبحانه، ربطها بها، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة في هذه القضية، فلم يفرِّطوا تفريط القدرية النفاة، ولم يُفْرِطوا إفراط الجبرية الغلاة.

فمذهب سلف الأمة وأئمتها أن جميع أنواع الطاعات والمعاصي والكفر والفساد واقع بقضاء الله وقدره، لا خالق سواه؛ فأفعال العباد مخلوقة لله؛ خيرها وشرها، حسنها وقبيحها، والعبد غير مجبور على أفعاله، بل هو قادر عليها، وقاصد لها، وفاعل لها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله: "الأعمال والأقوال والطاعات والمعاصي هي من العبد؛ بمعنى أنها قائمة بالعبد وحاصلة بمشيئته وقدريه وهو المتصف بها والمتحرك بها الذي يعود حكمها عليه، وهي من الله بمعنى أنه خلقها قائمة بالعبد، وجعلها عملاً له وكسبا؛ كما يخلق المسببات بأسبابها؛ فهي من الله مخلوقة له، ومن العبد صفة قائمة به، واقعة بقدرته وكسبه؛ كما إذا قلنا: هذه الثمرة من الشجرة، وهذا الزرع من الأرض؛ بمعنى أنه حدث منها، ومن الله؛ بمعنى أنه خلقه منها، لم يكن بينهما تناقض ... " انتهى

وقال السفاريني: "والحاصل أن مذهب أهل السلف ومحققي أهل السنة أن الله تعالى: خلق قدرة العبد وإرادته وفعله، وأن العبد فاعل لفعله حقيقة، ومحدث لفعله، والله سبحانه جعله فاعلاً له محدثاً له؛ قال تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلاّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} ؛ فأثبت

مشيئة العبد، وأخبر أنها لا تكون إلا بمشيئة الله، وهذا صريح قول أهل السنة في إثبات مشيئة العبد، وأنها لا تكون إلا بمشيئة الله ... " انتهى.
وأقول: إن مما يؤيد هذا أن الله أعطى الإنسان عقلاً وقدرة واختيارًا، ولا يحتسب فعله له أو عليه إلا إذا توفرت فيه هذه القوى؛ فالمجنون والمعتوه أو المكره لا اعتبار لما يصدر منهم من الأقوال والأفعال، ولا يؤاخذون عليها؛ مما يدل على أنه ليس بمجبر ولا مستقل بنفسه، والله المستعان

ثالثا لوازم الإيمان بالقضاء والقدر

وحتى يكون الإيمان بالقضاء والقدر سليم لا تشوبه شائبة لا بد من تقرير أربعة لوازم هي لوازم الإيمان بالقضاء والقدر

أولها: الإيمان بعلم الله عز وجل المحيط بكل شيء من الموجودات والمعدومات والممكنات والمستحيلات، فعَلِم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وأنه علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم وعلم أرزاقهم وآجالهم وأحوالهم وأعمالهم في جميع حركاتهم وسكناتهم وشقاوتهم وسعادتهم ومن هو منهم من أهل الجنة ومن هو منهم من أهل النار من قبل أن يخلقهم ومن قبل أن يخلق الجنة والنار علم دق ذلك وجليله وكثيره وقليله وظاهره وباطنه وسره وعلانيته ومبدأه ومنتهاه، كل ذلك بعلمه الذي هو صفته ومقتضى اسمه العليم الخبير عالم الغيب والشهادة علام الغيوب كما قال تعالى: {هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة} [الحشر: ٢٢] وقال تعالى: {لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما} [الطلاق:١٢] وقال تعالى: {وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا}[الجن: ٢٨] وقال تعالى:{عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر} [سبأ: ٣] وقال تعالى: {إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى} [النجم:٣٠] وقد بوب الإمام البخاري رحمه الله تعالى: باب: الله أعلم بما كانوا عاملين، وروى في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سئل النبي - ﷺ- عن أولاد المشركين فقال: "الله أعلم بما كانوا عاملين"
وروى مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه: بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافرا، ولو عاش لأرهق أبويه طغيانا وكفرا" فالذي أعلم الخضر هو الله سبحانه وتعالى

وثانيها: كتابته سبحانه لكل ما قدره وقضاه في كتاب مخطوط محسوس لا يعلم ماهيته إلا الله جل وعلا كما قال الله عز وجل: {ما فرطنا في الكتاب من شيء} [الأنعام: ٣٨] وقال تعالى: {وكل شيء أحصيناه في إمام مبين} [يس:١٢] وقال تعالى: {وكل شيء فعلوه في الزبر، وكل صغير وكبير مستطر} [القمر: ٥٣] وقال تعالى: عن موسى حين قال له فرعون {فما بال القرون الأولى، قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى} [طه: ٥٢] . وقال تعالى: {ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير} [الحج: ٧٠] وقال تعالى: {وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو} إلى قوله: {ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين} [الأنعام: ٥٩] وقال تعالى: {وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من

مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين} [يونس: ٦١] وقال تعالى: {وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير} [فاطر: ١١]
وثالثها: الإيمان بمشيئته النافذة؛ فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، كما قال سبحانه: {إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون} [يس: ٨٢] وما لم يشأ الله تعالى لم يكن لعدم مشيئة الله تعالى إياه ليس لعدم قدرته عليه {ولو شاء الله لجمعهم على الهدى} ، {ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة} ، {ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا} ، {أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا} ، {ولو شاء الله ما اقتتلوا} ، {ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين} فالسبب في عدم وجود الشيء هو عدم مشيئة الله تعالى إيجاده، لا أنه عجز عنه، تعالى الله وتقدس وتنزه عن ذلك {وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا}
رابعها: خلقه سبحانه لجميع الموجودات لا خالق غيره ولا رب سواه، كما قال سبحانه: {الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل} وقال تعالى: {يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون} قال تعالى: {يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث} [الزمر: ٦] وقال تعالى: {يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا} [الحج: ٥] الآية. قال تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين} [المؤمنون: ١٢-١٤] وقال تعالى: {أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا} [مريم: ٦٧] وقال تعالى: {الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور} [الأنعام: ١] فالله تبارك وتعالى الخالق وكل ما سواه مخلوق له، مربوب له، لا خالق غيره، فجميع السموات والأرض ومن فيهن وما بينهما وحركات أهلها وسكناتهم وأرزاقهم وآجالهم وأقوالهم وأعمالهم كلها مخلوقات له محدثة كائنة بعد أن لم تكن، وهو خالق ذلك كله وموجده ومبدئه ومعيده، فمنه مبدأها وإليه منتهاها {ألا إلى الله تصير الأمور} [الشورى: ٥٣] .
فالإيمان بالقدر يشمل هذه الأمور الأربعة عند أهل السنة والجماعة خلافا لمن أنكر بعض ذلك من أهل البدع . قلت وهذه اللوازم الأربع ذكرها ابن القيم رحمه الله في كتاب شفاء العليل قال :ومراتب الإيمان بالقضاء والقدر أربع مراتب المرتبة الأولى علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها، المرتبة الثانية كتابته لها قبل كونها، المرتبة الثالثة مشيئته لها،المرتبة الرابعة خلقه لها.

رابعا إذا متى كان تقدير مقادير الخلائق ؟

في " صحيح مسلم " عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:« كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء » قال العلماء المراد تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ أو غيره لا أصل التقدير فإن ذلك أزلي لا أول له وقوله وعرشه على الماء أي قبل خلق السماوات والأرض والله أعلم

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى- لما ذكر هذه الأحاديث وما في معناها، قال ." فهذا تقدير يومي، والذي قبله تقدير حولي، والذي قبله تقدير عمري عند تعلق النفس به، والذي قبله كذلك عند أول تخليقه والذي قبله تقدير سابق على وجوده لكن بعد خلق السماوات والأرض، والذي قبله تقدير سابق على خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق.

وفي ذلك دليل على كمال علم الرب وقدرته وحكمته واليك تفصيل تلك التقديرات

التقدير الأول تقدير المقادير قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة

التقدير الثاني تقدير الرب تبارك وتعالى شقاوة العباد وسعادتهم وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم قبل خلقهم انظر حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه السابق ،وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال له آدم أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة فقال النبي صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى فحج آدم موسى" الحديث متفق على صحته وهذا التقدير بعد التقدير الأول السابق بخلق السماوات بخمسين ألف سنة

التقدير الثالث تقدير والجنين في بطن أمه وهو تقدير شقاوته وسعادته ورزقه وأجله وعمله وسائر ما يلقاه ، عن عبد الله بن مسعود قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق: "إن أحدكم ليجمع خلقا في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها" متفق عليه وعن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة فيقول يا رب أشقي أم سعيد فيكتبان فيقول أي رب أذكر أم أنثى فيكتبان ويكتب عمله وأثره واجله ورزقه ثم تطوى الصحيفة فلا يزاد فيها ولا ينقص" رواه مسلم

التقدير الرابع تقدير ليلة القدر قال الله تعالى: {حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ}

التقدير الخامس تقدير يومي قال الله تعالى: {يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} عن ابن عباس - رضي الله عنهما- قال: إن الله خلق لوحا محفوظا

من درة بيضاء، دفتاه من ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، عرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة، ففي كل نظرة منها يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء، فذلك قوله تعالى: {كل يوم هو في شأن} رواه عبد الرزاق وابن المنذر والطبراني والحاكم.

خامسا إذا كان الله قد قدر وقضى بسابق علمه هل نعمل أم نتواكل؟

والإجابة في الصحيحين من حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه- قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة " قالوا: يا رسول الله! أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟! قال: " اعملوا فكل ميسر لما خلق له؛ أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة، فسييسر لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ: {فأما من أعطى واتقى - وصدق بالحسنى - فسنيسره لليسرى} » هذا الحديث عظيم في الأمر بوجوب العمل وعدم التواكل ففي شرح السنة للبغوي قال ذكر الخطابي على هذا الحديث كلاما معناه، قال: قولهم: «أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل» ؟ مطالبة منهم بأمر يوجب تعطيل العبودية، وذلك أن إخبار النبي صلى الله عليه وسلم عن سابق الكتاب إخبار عن غيب علم الله سبحانه وتعالى فيهم، وهو حجة عليهم، فرام القوم أن يتخذوه حجة لأنفسهم في ترك العمل، فأعلمهم النبي صلى الله عليه وسلم أن ههنا أمرين لا يبطل أحدهما الآخر: باطن: هو العلة الموجبة في حكم الربوبية، وظاهر: هو السمة اللازمة في حق العبودية،إنما عوملوا بهذه المعاملة، وتعبدوا بهذا التعبد، ليتعلق خوفهم بالباطن المغيب عنهم، ورجاؤهم بالظاهر البادي لهم، والخوف والرجاء مدرجتا العبودية، ليستكملوا بذلك صفة الإيمان، وبين لهم أن كلا ميسر لما خلق له، وأن عمله في العاجل دليل مصيره في الآجل،واطلب نظيره في أمرين من الرزق المقسوم مع الأمر بالكسب ومن الأجل المضروب في العمر مع المعالجة بالطب،

وحديث أخر عن جابر بن عبد الله قال: " جاء سراقة بن مالك بن جعشم قال: يا رسول الله بيّن لنا ديننا كأننا خلقنا الآن فيم العمل اليوم أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل؟ قال: "لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير قال: ففيم العمل فقال: اعملوا فكل ميسر" رواه مسلم قال ابن القيم : فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال عليه، بل يوجب الجد والاجتهاد.

ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك قال: ما كنت بأشد اجتهادا مني الآن.

وقال أبو عثمان النهدي لسلمان: لأنا بأول هذا الأمر أشد فرحا مني بآخره.

وذلك لأنه إذا كان قد سبق له من الله سابقة وهيأه ويسره للوصول إليها كان فرحه بالسابقة التي سبقت له من الله أعظم من فرحه بالأسباب التي تأتي بعدها

سادسا عقيدة أهل السنة في الرضا بالقضاء والقدر

غلط في هذا الأصل طائفتان أقبح غلط فقالت القدرية النفاة الرضا بالمعاصي لا يجوز فليست بقضائه وقدره وهذا غلط وقالت غلاة الجبرية الذين طووا بساط

الأمر والنهي المعاصي بقضاء الله وقدره والرضاء بالقضاء قربة وطاعة فنحن نرضى بها ولا نسخطها وهذا غلط

أما معتقد أهل السنة والجماعة فالحكم والقضاء عندهم نوعان ديني وكوني فالديني يجب الرضا به وهو من لوازم الإسلام ففي سنن أبي داود عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله [صلى الله عليه وسلم] قال: " من قال رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا، وبمحمد [صلى الله عليه وسلم] رسولا، وجبت له الجنة " والكوني منه ما يجب الرضا به كالنعم التي يجب شكرها ومن تمام شكرها الرضا بها ومنه ما لا يجوز الرضا به كالمعايب والذنوب التي يسخطها الله وإن كانت بقضائه وقدره ومنه ما يستحب الرضا به كالمصائب هذا كله في الرضا بالقضاء الذي هو المقضي وأما القضاء الذي هو وصفه سبحانه وفعله كعلمه وكتابه وتقديره ومشيئته فالرضا به من تمام الرضا بالله ربا وإلها ومالكا ومدبرا فبهذا التفصيل يتبين الصواب ويزول اللبس في هذه المسألة العظيمة التي هي مفرق طرق بين الناس فالحمد لله الذي هدانا لما أرسل به رسوله وأنزل به كتابه وفطر عليه عباده وبرأنا من البدع

سابعا ثمار الإيمان بالقدر

يقول الشيخ الدكتور الأشقر رحمه الله : "ومن تأمل في عقيدة القدر التي جاء بها الإسلام وجد لها ثماراً كبيرة طيبة، كانت ولازالت سبباً في صلاح الفرد والأمة

١- الإيمان بالقدر طريق الخلاص من الشرك: ولا يتم توحيد الله إلا لمن أقرَّ أن الله وحده الخالق لكل شيء في الكون، وأن إرادته ماضية في خلقه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فكل المكذبين بالقدر لم يوحدوا ربهم، ولم يعرفوه حق معرفته، والإيمان بالقدر مفرق طريق بين التوحيد والشرك.

٢- الاستقامة على منهج سواء في السراء والضراء الإيمان بالقدر يجعل الإنسان يمضي في حياته على منهج سواء، لا تبطره النعمة، ولا تيئسه المصيبة، فهو يعلم أن كل ما أصابه من نعم وحسنات من الله، لا بذكائه وحسن تدبيره (وما بكم من نعمة فمن الله) [النحل: ٥٣]

٣- المؤمن بالقدر دائماً على حذر: المؤمنون بالقدر دائماً على حذر (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) [الأعراف: ٩٩] فقلوب العباد دائمة التقلب والتغير، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، والفتن التي توجه سهامها إلى القلوب كثيرة، والمؤمن يحذر دائماً أن يأتيه ما يضله كما يخشى أن يختم له بخاتمة سيئة، وهذا لا يدفعه إلى التكاسل والخمول، بل يدفعه إلى المجاهدة الدائبة للاستقامة، والإكثار من الصالحات، ومجانبة المعاصي والموبقات.

٤- مواجهة الصعاب والأخطار بقلب ثابت: إذا آمن العبد بأنَّ كل ما يصيبه مكتوب، وآمن أن الأرزاق والآجال بيد الله، فإنه يقتحم الصعاب والأهوال بقلب ثابت وهامة مرفوعة، وقد كان هذا الإيمان من أعظم ما دفع الصحابة إلى الإقدام في ميدان النزال غير هيابين ولا وجلين، وكان الواحد منهم بطلب الموت في مظانه، ويرمى بنفسه في مضائق يظن فيها هلكته، ثم تراه يموت على فراشه، فيبكي أن لم يسقط في ميدان النزال شهيداً، وهو الذي كان يقتحم الأخطار والأهوال.

وأخيرا على المؤمن أن يرضى بالله تعالى رباً ومن تمام رضاه بالربوبية أن يؤمن بقضاء الله وقدره ويعلم انه لا فرق في هذا بين الأعمال التي يعملها وبين الأرزاق التي يسعى لها وبين الآجال التي يدافعها، الكل بابه سواء والكل مكتوب والكل مقدر وكل إنسان ميسر لما خلق له.

أسال الله عز وجل أن يجعلنا ممن ييسرون لعمل أهل السعادة وان يكتب لنا الصلاح في الدنيا والآخرة والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى اله وأصحابه أجمعين.
وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

سلطنة عمان ـ ظفار ـ حدبين
السبت ١٠/جمادي الآخرة/١٤٣٤هـ الموافق ٢٠١٣/٤/٢١
وكتبه الفقير إلى عفو ربه أبوسمية/ محمد حمدي رضوان

المراجع :

١- القرآن الكريم وتفاسيره (ابن كثير – الطبري – زاد المسير – القرطبي ......)
٢- فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر
٣- شرح الامام النووي على مسلم
٤-القضاء والقدر للشيخ العلامة عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي
٥- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل الإمام ابن قيم الجوزية
٦- معارج القبول للحافظ الحكمي
٧- شرح العقيدة الطحاوية تعليق الشيخ الألباني
٨- أصول الإيمان لشيخ الإسلام أبي عبد الله محمد بن عبد الوهاب
٩- رسالة في القضاء والقدر للشيخ العلامة محمد بن صالح بن محمد العثيمين